الكُحل

بقلم الدكتور شاكر الخوري مدرّس الاكليريك البيّ في المكتب الطبي في كلية القديس يوسف

كأنّ الانسان لم يكتفِ بالامراض العديدة التي تُحيط به حتّى اخترع بعض امور تلذُّ لهُ ظواهرها وعاقبتها عذابٌ لهُ واوجاع. والمرء يُعذر اذا أُصيب بعلّةٍ أتتهُ بقضاء ربّهِ من حيث لا يدري لانّ اسباب الهلاك لا يعدُّها احصاء. فمها صنع الانسان لا يمكنهُ التملُّص منها جميعاً. لكنّ من الامراض انواعاً لا علّة لها سوى ارادة من ابتُلي بها ومخالفته للقوانين الصحّيّة فاذا اعتبت احداً لم يستطع ان يُبدي عذرًا لانهُ جلبها لنفسهِ باطلاقهِ العنان لشهواتهِ مع معرفتهِ بسوء عقباها فتراهُ لا يسمع كلام نذير ولا امر مدير ولا مختبر حتّى تؤدّي بهِ الى هلاكهِ. فتبًّا لها من شهوات تضيع العقل وتعدم الراحة والصحّة. وتضحّي انواع الرفاهية في سبيل الهوى الباطل

وما يزيد في غرابة الامر انّ بعض هذه الامراض ناتج عن إقدام الانسان على شيء يلتذُّ بهِ غيرهُ وهو لا ينال منهُ الّا الضرر والألم لكنّهُ يفعل ذلك لِيُنسب اليهِ الجمال ولعلّهُ هو خلوٌ منهُ ولا يجهل كذب من يصفهُ بهِ

ومن جملة هذه العادات السّيّئة صبغ الشعر والتغشّر اي طلي الوجه بالغُمرة وانواع الاصباغ ثم كحل العيون. ولا أتعرّض هنا للعادتين الأوليين فانّ ما يتولّد منهما من عاهات البَشَرة والجلد يجعلها خصيصتين بمعلّم الامراض الجلديّة واماً تكحيل العيون فاني اتكفّل باظهار اضراره وشرح عواقبهِ لمن يستعملهُ طمعاً في استحسان غيرهِ لمنظرهِ. وكفى التكحّل ذمًّا ما يُقال في حقّه انهُ ذو العين السوداء الكاذبة. واني استميح المعذرة من المتكحّلات اذا ما اتى شيء يسوءهنّ في اثناء مقالتي هذه عن شرح مضارّ الكحل. فانني طبيب وَمَدي وبهذه الصفة اشاهد عدداً وافرًا من السّيدات المُصابات بامراض في عيونهنّ لا سبب لها غير الكحل. ولا يمكن للطبيب ان يرى عادةً يتأتّى منها مدّة اضرار ويسكت عنها. فمن ثمّ قد تكلّفنا هنا شرح ما تورثهُ هذه العادة الوخيمة من المرض في العيون ألا وهو الرَّمَد الكُحلي

وقبل الابتداء بشرح اعراض المرض نذكر نبذة تاريخية عن هذه العادة الجارية في العالم من القِدَم ولا نعلم انّ احداً بحث فيها بحثاً مدققاً لتعيين مضارّها رغماً عن قدمها.

وذلك ناتج عن عدم وجود اطبّاء مختصين لامراض العين قبل ايّامنا هذه في البلاد الشرقية حيث تأصّلت هذه العادة المضرّة . واماّ اطباء الغرب فانهم لم يتكلّموا عنها لانها قليلة عندهم واضرارها نادرة في بلادهم . فاكون انا اوّل مبشّر يُنذر المكحلات ويظهر لهنّ اضرار هذه العادة التي ابتدأت منذ ابتداء العالم

تاريخ هذه العادة

قد ذكرنا في كتابنا « صحّة العين » في فصل زينة العين عن تاريخ هذه العادة التي ابتدأت ولم تزل في الشرق فاحببنا الآن لاجل اتمام الفائدة ان نختصر ما قلناهُ وهو : ان هذه العادة قديمة كالعالم فكلّ من المصريين والكلدانيين والاسرائيلين كان يستعملها . وذكر المؤرّخون دورديس وساوس ونقولا وهيرديوس عن سردانابال ملك اشور انّهُ كان يقضي مدّة من الوقت في تكحيل عينيه وصبغ حاجبيه وتحسين وجههِ . وذكر ايضاً مؤرّخو اليونان واللاتين هذه العادة فنهم أوثيد قال ان النساء كنّ يحشونَ حواجبهنّ في الحلّ الخالي من الشعر ولم يكنّ يخجلنَ من تزيين العين بمسحوق ناعم او بزعفران قليقية

وذكر پلين الطبيعي انهُ لم يكن يمضي يوم واحد على أهداب رجال زمانهِ ونساء عصرهِ من دون ان تُصبغ . وذكر عدّة مؤرّخين عن استعمال مزيج من الاثمد والكبريت لتكحيل العين ومن جملتهم پلين المذكور . وفي الجيل الثالث عشر كانوا يعتبرون العيون السود اعتباراً عظيماً بحيث انّ سواد العين كان يُعدُّ من اقوى الاسباب لاستمالة القلوب في ذلك الوقت فكانت صاحبة العين الزرقاء تجعلها سوداء بوسائط متعدّدة منها وضع عصارة الحُمرة البلاّدونا داخل الجفن لان خواصّ هذه العصارة ان تمدّد الحدقة فتصير العين سوداء فكان ينتج من هذا التمدد المستديم ضرر عظيم بالبصر

اماّ اهل الصين فيستعملون ورق زهر الورد . والتتر يحبّون اللون الاصفر الضارب الى الحُمرة فيتّخذون لذلك الصُفيرة (الباسمين) . ولا نتعرّض في مقالتنا هذه لبقية المواد المستعملة لصبغ الوجه والحواجب وان كان تأثيرها مضرّاً بالعين ايضاً وبالخصوص السيذاج الذي هو مركب رصاصي . وقد وجدوا في مدافن المصريين والفينيقيين مكاحل ومراود لاجل هذه الغاية ووجدوا ايضاً آلات غيرها للزينة مثل الامشاط والوذائل والمرايا وغير ذلك وكانوا بالاكثر يرسمون على هذه الآلات صورة مسخ شنيع المنظر يدعونهُ البس

يزعمون انهُ زوج الزهرة إلاهة الجمال. وكانت غايتهم بهذا النقش ان يشيروا الى رجال قبيحي الصوَر

اما المرايا فكانت كلها مشوّهة برسم هذا المسخ لا تخلو منهُ البتة. وغايتهم في ذلك ان يحسّنوا النساء في وجوههنَّ وذلك ان التي تنظر وجهها في المرآة تجد هيئتها دائمًا جميلة بالنسبة الى صورة المسخ الشنيعة. واحيانًا كانوا يرسمون شخص هذا المسخ قائمًا بنفسهِ وحاملًا مكحلة فيها ميل يقدّمها الى المتكحلات

امراض المرض

لا يمضي يوم ألّا ويحضر الينا مرضى يشكون حرقًا في العين مع تدمُّع غزير. وبعد الفحص المدقّق نجد من الكحل كمّيّة وافرة في باطن الجفن السفلي وهو المسبّب لهذا الهيَجان. وعدا عن ذلك نرى حافة الاجفان الملتصق عليها الكحل مُتهيّجة سميكة والغدَد التي توجد بين النسجتها ملتهبة ايضًا وحافة الجفن محمرَّة مُلتهبة ويصير الشعر سريع الانتصاف والسقوط حتى يتلف تمامًا وينتثر فيصير المنظر كريهًا جدًّا. ويتعسَّر ابطال عادة التكحل لانَّ من اعتادهُ ونُسلت بذلك اهدابهُ يحاول اخفاء هذا التشويه الناتج من استعمال الكحل كما يحصل للذين يزيّنون وجوههم لكي يستروا التجعُّدات المسبَّبة من استعمال الزينة

وقد احصيتُ عدد هؤلاء المرضى فكان في هذه السنة ما ينيف على المائة والخمسين وجميعهم في سنّ الشبوبية. وكان خير علاج لهم ابطال هذه العادة فقط وبعض غسولات لنظافة الاهداب من الكحل. ولعلّ جهل مضارّ هذه العادة كان سببًا لانتشارها في بلادنا

ويحتمل ايضًا انّ هذه العادة لم تُجرَّ عليها فقط للزينة بل ايضًا تخفيفًا لاشعَّة الشمس الزايدة عن المقدار اللازم للبصر في البلاد الحارّة. وكان ذلك كالهام مطابق للطبيعة لان اغلب سكان البلاد الحارّة لهم عيون سود لاجل امتصاص واحتمال اشعَّة الشمس القويَّة

تركيب الكحل الكياوي

يوجد عند العامَّة نوعان من الكحل: الاصبهاني والحجري. وعند الكياويين نوعان ايضًا الاول: كبريتور الرصاص والثاني كبريتور الانتيمون الاسود وهذا الثاني اكثر استعمالًا من الاول ويعتني الناس به اعتناءً كبيرًا. فضلًا عن التأثير الموضعي الذي يفعلهُ في الهدب وفي

الجفن كجسم غريب فان فعلهُ الكيماوي اشدّ تأثيرًا خصوصاً على غُدَد ميبوميوس (Meibimius) وهي التي تفرز المادّة الدهنية لاجل نعومة الجلد والشعر فبالاتحادات الكيماوية التي تحصل بين هذه المادّة الدهنية وكبريتور الكحل تتولّد اجسام اخرى لها خواصّ مخالفة لخواصّ الموجودة في المادّة الدهنية فيفقد الشعر لينَهُ ويتقصّف. والغدد المفرزة تلتهب ويقلّ افرازها فتسمك حافة الجفن. ثم ان البرصيلات الشعريّة تصاب ايضاً فالشعر النابت فيها يكون ضعيفاً قليلًا ويتصل الالتهاب من حافة الاجفان الى الفتحات الدمعية وقنواتها ويسبّب انسدادها فيسيل الدمع على الخدود سيلًا مستمرًّا يلزم ان يتعالج من اعتلّ به معالجة طويلة المدّة

فهذه هي الاضرار التي اراها يوميًّا من استعمال الكحل فاردتُ ان انشر هذه الرسالة لا طمعاً بان تسمع المتكحلات المزمنات لقولي ويتنفعنَ بهِ ولكن لكي انبّه اللواتي يتكحلنَ من عهد حديث او اللواتي لم يتعوّدن الى الآن على الكحل فيرتدعنَ عن اتخاذهِ. ولعلّ هذه الرسالة تهيّج عليَّ غضب المتكحلات المزمنات ولكن استمرارهنَّ على استعمال الكحل بعد هذه المقالة يأخذ ثارنا منهنَّ. فالامل منهنَّ عند ما ينظرنَ وجوههنَّ بالمرآة ان يتأملنَ في عيونهنَّ ويعرفنَ صدق مقالنا

المعالجة الادبية

ان عادة التكحّل قد دخلت في هذه السنين الاخيرة عند المتمدنات في بلادنا وعند النساء العاقلات ظنًّا منهنَّ انها لا تضرّ وتزيد الهيئة جمالًا. فعبثًا نحاول ازالة هذه العادة برسالة كهذه لاننا اوّل من كتب عنها ولا رجاء لنا ان نبطل هذه العادة عند مَن يألفها وإنّما غايتنا رَدْع من اراد ان يعتادها في المستقبل وخصوصاً البنات الخارجات من المدارس. وأرى ان المعلمات في المدارس يجب عليهنّ ان يظهرن للتلميذات اضرار هذه العادة ويعطين دروساً بالاملاء عليها وعلى اضرارها حتى تأنف التلميذات منها. فكما انّ غاية المدارس هي حفظ الآداب والاديان كذلك يقتضي انْ يتعلم التلامذة البعد عن اضرار الجسم والعقل والصحة فكما يوصيهم الاستاذ بتحاشي ضرر القريب كذلك يلزم ردعهم عن ضرر ذاتهم. وعلى المعلّمة ان تبيّن للبنات اضرار زينة العين والوجه وليوضع صور في المدرسة للمصابين باضرار الكحل كما يلزم فعل ذلك في مدارس الصبيان لكفّ من تعوّدوا شرب الدخان والمسكرات فيفهمون اضرارها سواء كان بالعقل او بالصحة او المال. فهذا ضروري جدًّا

وسأبين ان شاء الله في كتابي اسميه « امراض التمدن » جميع هذه الاضرار الناتجة من الدخن والمسكرات وزينة الوجه والفساد ولعب القمار واضرارها الصحية والعقلية والمالية والأدبية لان هذه الامراض مضرة جداً وليس من قانون لمنعها ولا مبشر بمضارها لانّ الاباحة سهّلت لفاعليها الاكثار من استعمالها. وليس لها مانع الّا العقل والعقل لا يقوى على العادة

وربّما رأيت عقلاء يعرفون هذه الاضرار جيداً كالاطباء مثلاً ومع ذلك تغلب العادة عقلهم وإدراكهم باضرارها فانظر يا صاح كم هي قوية هذه العادات حتى تغلب العقل وتعمي الانسان عن صالحه فكم يلزم من الملاحظة من الاهل والمعلّمين والمعلّمات لمنع هذه العادة عند هؤلاء الصغار الذين سلمتهم اليهم اليد الربّانيّة. ولا يكفي في الابتداء وعظهم بالعقل فقط لانهُ لا عقل لهولاء الاطفال حتى يدركوا الاضرار المستقبلة غير المحسوسة بل يلزم القوة والقصاص لمنعهم واذا كبروا فليعاملوا بالعقل الذي تساعدهُ القوّة المستعملة قبلاً والتربية الاولى فينبذون هذه العوائد الذميمة ولولا ذلك لما فعل العقل شيئاً ما لم تحلّ نعمة خصوصية قويّة جداً من السماء. فتحمل الانسان على ترك عوائده. وقد اقتصرتُ في مقالتي هذه على ذكر الاضرار التي تحصل من كحل العين لأنني اشاهدها يومياً راجياً بان تنتبه السيدات ويمنع الآباء والامهات بناتهم عنهُ وحتى تعرف الابنة الى اين مصيرها بعد هذه العادة. وارجوها ان تطلب من والدتها المتعوّدة على الكحل ان تريها نفسها عند الصباح بعد قيامها من النوم فترى تلك العيون المسخنة المحمرَّة المدمعة والحكّة (الرعيان) المستمرّة بها والشعر الضعيف الذليل كأنهُ محروق مقصّف واذا كان باقياً اثر للكحلة السابقة ترى حول الشعر مواداً لحميّة كعيون الوقّادين في البواخر. واذا حلّ لون الكحل بسبب التدمع على خدّيها فترى مسازيب مواداً قذرة. ولربما كأفتك ايتها الابنة والدتك ان تقتلعي ما يحرق عينها ويسبب لها الحكّة فتجدين في باطن جفنها السفلي خيوطاً مسودّة مستقرّة في هذا الميزاب بين الجفن والعين التي تتهيّج من احتكاكها ببقايا الكحل كأنهُ ملح او غبار متلبّد داخل العين وخصوصاً اذا كانت زينة والدتك ليست مقتصرة على العين فقط فتزين الوجه والحواجب والاسنان بحالة افضل منها سنّ الثمانين. فتأمّلي ايتها الابنة النضرة الصباء واتّعظي واكتفي بما اعطاك الله من الهيئة الطبيعية والصحة والعقل لان كل عمل غير عملهِ مضرّ بصاحبهِ واطلبي من الله ان يرجع عقل والدتك لها ويريحها من كلّ ذلك وان لا يدخلك في التجارب بل ينجيك من التكحيل